الفلسفة العملية الايطالية غرامشي نموذجا

د. أحمد عطار[1]

توطئة:

يتألف تاريخ الماركسية من جيلين أساسيين شكلا البناء العام للفكر الماركسي، الأول مثله ماركس طبعا، والجيل الثاني شكلته نخبة من المفكرين الشباب كان أبرزهم المنظر الايطالي "انطونيو غرامشي"، مفكر السياسة والبنية الفوقية والايديولوجيا، وبالفعل "لقد قالوا عن غرامشي انه المفكر الماركسي الأكثر أصالة وإبداعا بعد لينين..نحن نعرف أن المفكر ماركس كان مفكر التاريخ (المادية التاريخية والاقتصاد، رأس المال، نقد الاقتصاد السياسي) ونعرف أيضا أن لينين هو مفكر الثورة وتقنياتها (الحزب الطليعي وعلاقته مع الأحزاب الأخرى والجماهير)..فما هي المساهمة الخاصة لغرامشي في التفكير والنقد الماركسي؟ "[2]

01- حياته:

ولد الفيلسوف الماركسي "أنطونيو غرامشي" يوم 22 جانفي، عام 1891، في بلدة "آليس"(Ales) وهي بلدة زراعية صغيرة بجزيرة "ساردينيا" (Sardaigne)[3] الايطالية من عائلة برجوازية صغيرة وكان فيها الأخ الرابع لسبعة أخوات، تميزت "سردينيا" عن المناطق الجنوبية في ايطاليا بتخلفها الشديد والفقر وارتفاع كبير لمعدلات الجريمة أما اقتصاديا فكانت ما تزال منطقة رعوية زراعية.

عاش غرامشي طفولة قاسية وفق ما ذكره في مراسلاته زاد في صعوبتها إصابته بإعاقة جسدية بسب حادث سقوطه من مربيته لدرجة اعتقاد أمه باستحالة بل نجاته و أعدة العدة لموته لكنه خرج من هذه المحنة بإعاقة مستديمة في ظهره كان لها الأثر البالغ على نفسيته، وزاد على ذلك تدهور الحالة المادية للعائلة مما اضطره وهو في الحادي عشر ربيعا للعمل في المكتب العقاري الذي يشتغل فيه أبوه بدوام يفوق التسع ساعات يوميا، وبأجرا بخس مما فوت عليه فرصة الدراسة الجيدة أمام قسوة الظروف الاجتماعية التي أبعدته عن طفولة سعيدة ورغدة وعن الدراسة الجيدة وهو الذي كان متفوقا فيها بالرغم من معاناته من مشكلة ثنائية اللغة (اللغة الايطالية والسردينية) مثل كل "السردينيين".

---

[1] أستاذ بجامعة أبو بكر بلقايد تلمسان.الجزائر

[2] ميشال سيمون، افهم الايديولوجيا ، دار الوقائع الاجتماعية، باريس، 1987، ص 100 نقلا: عن عمار بلحسن ،الأدب والايديولوجيا، المؤسسة الوطنية للكتاب المكتبة الشعبية، الجزائر، 1984، ص 16.

[3] Pochothèque, Encyclopédie de la philosophie, Garzanti, 2002, p 659.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بعد سنتين من الانقطاع عن الدراسة يعود إليها غرامشي بشغف كبير وفي سنة 1910 سيبتعد أكثر عن منزلهم وبالتحديد إلى ثانوية "جيوفاني ماريا ديتوري" "بكالياري" عاصمة ولاية "سردينيا" أين سيعمل بعد ساعات الدراسة ليكفي نفسه ومع ذلك فلم تتحسن أحواله المادية لدرجة انه أصيب بنقص التغذية، بل كان أحيانا يغمى عليه من شدة الجوع.

بين سنوات 1910- 1912 بدا يتصاعد الاهتمام السياسي عند غرامشي وزاد تعاطفه مع الأفكار الاشتراكية والتي كانت له معها روابط منذ الطفولة واشتدت كراهيته للطبقة السياسية المستبدة وحملها كل آلام الأمة الايطالية وحتى تخلف مسقط رأسه "سردينيا" وتزامن هذا الحس السياسي مع تنامي شغفه باللغات وبالتحديد فقه اللغة (الفيلولوجيا) وهو الذي اختار دراسة اللغة الإغريقية متمنيا أن يكون أديبا.

بعد سبتمبر 1911 تخرج غرامشي من ثانوية "كالياري" وانتقل إلى كلية الآداب بجامعة "تورينو" Turin وفي هذه الفترة كانت ايطاليا تعيش أزمة حقيقية فإضافة إلى الحرب الليبية (1911-1912) لاحت في الأفق أزمة ثقافية و سياسية وحتى داخل الحزب الاشتراكي كان هناك صراع خفي بين الثوريين والمعتدلين.

استفاد غرامشي من منحة مدرسية كانت تقدمها جامعة "تورينو" للطلبة المعوزين لكن بشرط حصولهم على معدلات عالية وهو الشيء الذي وفق فيه لحدا بعيد لدرجة أن أساتذته تنبؤ له بمستقبل زاهر في مجال الالسنيات لكن مقابل هذا النجاح المعرفي قابله تدهور صحي ولقد لاحظ أستاذه في الفلسفة "آنيبالي ياستوري" انه يتبع "**بيند يكتو كروتشي" وهيجل** أكثر من "كارل ماركس" ويهتم كثيرا بالتقريب بين النظرية والممارسة، وبالفعل فبداية من سنة 1912-1913 بدا يحاول تطبيق أفكاره عمليا عندما انظم إلى اتحاد الشباب الاشتراكيين، ورغم كل هذه التجارب فغرامشي لم يكن بعد اشتراكين بما تحتويه الكلمة من معنى ولعل المنعرج الذي سيجعله كذلك هو الانتخابات النيابية التي جرت[4] في أكتوبر 1913 بينما كان غرامشي في سردينيا ينتظر افتتاح السنة الدراسية فلقد تأثر كثيرا لمنظر الفلاحين وهم يشاركون لأول مرة في الحياة السياسية، مما أشعل فيه الحماسة ودفعه إلى العمل السياسي، أولا بتثقيف العمال وتلقينهم الأفكار الاشتراكية وهي المهمة التي كانت موكلة إليه في اتحاد الشباب الاشتراكيين، وهي مهمة سيعتبرها فيما بعد احد مهام الطليعة المثقفة التي بها يمكن تسريع حركة التاريخ.

في بداية سنة 1914 حملت الساحة السياسية في ايطاليا جدلا حادا حول مشاركة ايطاليا في الحرب العالمية الأولى التي كان يدعمها "بنيتو موسوليني" في جريدته "البوبلو ديطاليا" "شعب ايطاليا"، في حين عارضها غرامشي بعد تردد ففي البداية كان يساند الحرب معتقدا أن هذه الحرب كفيلة بإسقاط النظام البرجوازي، ترافقت في ايطاليا النقاشات حول الحرب مع حملة تجنيد واسعة استثني فيا غرامشي بسبب وضعه الصحي، حينها كرس نفسه كليا للنقد المسرحي والعمل الصحفي الذي كان مصدر رزقه، فالمقالات التي نشرها كانت توحي بنضج وخصوصية أصبحت تطبع فكر غرامشي، الذي كان يحوم حول ضرورة تنمية الوعي الطبقي "للبروليتاريا" بمقابل نضالاتهم السياسية.

في نهاية سنة 1914 سعى غرامشي لتوثيق العلاقات السياسية بين الحركة العمالية في شمال ايطاليا وحركات الفلاحين في جنوبها تحديدا بجزيرته "سردينيا" كتأسيس لما أسماه تحالف "الكتلة التاريخية"، وكنوع من زيادة

4 جون كاميت، غرامشي، حياته وأعماله، ترجمة: عفيف الرزاز، الإعداد الالكتروني لجريدة النضال، ص 15.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الوعي لسكان الجنوب وتثقيف للبروليتاريا، ومع ذلك فلم تكن ايطاليا دولة صناعية مثل قريناتها في أوربا، فرغم وجود مدن صناعية كبرى في الشمال (مصانع المعادن) وشركات كبيرة مثل "فيات Fiat " وتباعدا طبقيا بين العمال والطبقة الرأسمالية إلا أنها لم تضاهي على الأقل فرنسا مثلا، بل حتى العمال لم يكن لهم تضامن أو وعي طبقي علما أن اغلبهم كان نازحا من الريف لدرجة أنهم كانوا يشتغلون في الفلاحة بعد خروجهم من أعمالهم ولو بدوام جزئي.[5]

ومع ذلك فإن الحركة العمالية في ايطاليا كانت تنضج شيئا فشيئا، ويأتي هذا النضج على حسب غرامشي من خلال الجدلية الحاصلة بين البروليتاريا وطليعتها المثقفة التي تقوم بتحرير وعيها، ذلك أن غرامشي راهن كثيرا على الإرادة العمالية واعتبر التاريخ صناعة إنسانية لا يمكن إرجاعها إلى "الحتمية الميكانيكية"وهو بذلك يوجه نقدا مبطنا كذلك إلى الاشتراكيين الذين اعتقدوا باستحالة قيام الاشتراكية في ايطاليا ما دام لم ينضج النظام الرأسمالي، بل أكد غرامشي في مقالا له سنة 1916 بجريدة "أفنتي" Avanti !, (جريدة الحزب الاشتراكي) قدرة تحقق الاشتراكية في ايطاليا حتى قبل الدول الصناعية كانجلترا وألمانيا بواسطة قوة الإرادة.

نقد غرامشي للجناحين المعروفين في الحزب الاشتراكي (الإصلاحيين والراديكاليين) أثمر عمله "المدينة المستقبلية" 1917 أين ينتقد عند "الإصلاحيين الاشتراكين" فكرة الحتمية التاريخية الميكانيكية العمياء التي يجدها خاصة عند "كلاوديو تريفيز" في قوانين التاريخ متأثرا بالوضعية العلمية، واستنادا إلى غرامشي فإن التخطيط والتعليم الثوري إضافة إلى الإرادة الإبداعية في التاريخ تجعل الإنسان يسطر أهدافه، بمعنى أن الإنسان هو محرك التاريخ، ونلمس في هذه الفكرة تأثر بأعمال الفلسفة المثالية والفيلسوف "كروتشي".

لقد كان لإحداث الثورة الروسية في فبراير 1917 الأثر البالغ على ايطاليا و"تورينو" رغم ما تبع الثورة من فوضوية إلا أن غرامشي كان يثق في قدرة القائد البلشفي "لينين" على إنجاح الثورة وقيادة روسيا إلى بر الأمان، وفي هذه الأثناء سرى في ايطاليا تفاؤل غامر بالثورة الروسية والمجرية وتذمر شديد من الحرب التي كلفت نصف مليون قتيل وأزيد من مليون جريح وعجزا كبير في الميزانية، ولقد كان النقص الفادح في الخبز يوم 21 أوت 1917 فاتحة الانتفاضة عفوية كبيرة عمت الطبقة العمالية لكن هذا الانتفاضة لم يكتب لها النجاح بسبب سؤ التنظيم والتخطيط وانعدام قيادة توجها إضافة إلى الشراسة والقسوة الزائدة التي قمع بها الجنود النظاميون العمال.

وفي خضم هذا الجو المشحون والحزين وصلت بعد مدة أخبار هزيمة ايطاليا في معركة "كابوريتو" في أكتوبر 1917 التي كانت ضربة قاسمة للدولة والمجتمع الايطالي وفي الشهر الموالي عقد الحزب الاشتراكي "بفلورنس" مؤتمر للإعداد للثورة شعر فيه غرامشي وهو ابن السادسة والعشرين بحماس زائد رغم انه لم يكن عضوا مؤثر في التجمع، وتم الخروج بضرورة التجهيز للثورة الاشتراكية كون الظروف مواتيه والدولة منهكة، لكن الكثير من الإصلاحيين داخل الحزب الاشتراكيين كانوا مشككين في نجاحها بحكم عدم اكتمال المرحلة الرأسمالية التي ستعقبها الاشتراكية وهو تصورا جبري للماركسية .

شق غرامشي قراءته الخاصة لماركس فلم تكن تشبه ماركسية الاشتراكيين في حزبه فهو لم يرى ماركس نبيا يحرم نقده أو يستحيل التفكير من بعده، بل بالعكس لقد أعجب غرامشي بالاجتهادات التي سعت لتطوير

---

5 المرجع نفسه، ص 06.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الماركسية مثل ما هو الحال مع "لينين" وقراءته الخاصة للوضع الروسي وسعى لفعل نفس الشيء بالنسبة لايطاليا فظهرت مقالاته في صحيفة "الغريدو ديل بوبولو " تحلل وتفكر في الحدث الروسي ونظرية "لينين" أين استنتج منها انه هناك مستويين: المستوى الإنساني والمستوى الاقتصادي، الأول يرتبط بمفاهيم: الوعي والإرادة، والثاني بمقولات: وسائل الإنتاج والقيمة، وكما أن الثورة الاشتراكية لها أسس اقتصادية فهي كذلك تستدعي مقتضيات إنسانية والتي لا تقل أهمية عن الأولى ومنه فليس بالضرورة أن ننتظر تطور واكتمال كل مرحلة من المراحل الاقتصادية التي قل بها "ماركس" لنصل إلى الاشتراكية، فإن أمريكا أكثر تطورا وتصنيعا من انجلترا وانجلترا أكثر تطورا وتصنيعا من روسيا ومع ذلك حدثت الثورة في روسيا الزراعية بواسطة الفلاحين وليس العمال، لأن الإنسان وليس العامل الاقتصادي هو المركز الفاعل في التاريخ، ومنه قسم غرامشي الماركسية إلى ثلاث أقسام هي:

01- مستوى الاقتصاد السياسي (القيمة)

02- فلسفة البراكسيس (إرادة الإنسان وواقعه): تشكل همزة الوصل بين المستويين 1- و2

03- العلم السياسة والأخلاق (الدولة)

سنة 1918 حاز غرامشي على سمعة واسعة في ايطاليا عبر مقالاته الشهيرة خاصة تلك التي وقف فيها مع الظاهرة الروسية يحللها وينتقدها ويصف إبداعية "لينين" في قيادتها ثم دعواته المتكررة لإقامة مجالس العمال الثورية في ايطاليا كما انتقد غرامشي في مقالاته التنظيمات العمالية واستبداد أقلية نافذة في مسار النقابات وبقاء الأغلبية الساحقة من العمال خاضعين بشكل سلبي دون أي نوع من الديمقراطية والتشاور في قضايا العمل النقابي، وهكذا لاحظ غرامشي أن "اللجان الداخلية*" المقامة في "تورينو" لم تكن تحض بأي تسيير ديمقراطي ولم تجعل من سيطرة البروليتاريا على الإنتاج هدفها المستقبلي.

وضع غرامشي مشروعا طموحا لتنظيم "اللجان الداخلية" وتحويلها إلى ما يسمى "سوفييتات" بمعنى هيئة سياسية عمالية تشاورية ترتفع باللجان الداخلية من كونها مجموعات نقابية فقط إلى "مجالس مصانع" فعالة، تمهد وتسهل الثورة، فتحتذي بنظيراتها في روسيا، لكن هذه الدعوة قوبلت باعتراض داخل الحزب وحتى منع الترويج لها في الصحيفة التي بدا يكتب فيها: "النظام الجديد" (« Nouvel Ordre » (l'*Ordine Nuovo*) مما أخر ظهورها حتى صدور العدد السابع أين تحمس الكثيرون للفكرة وبدأت تنتشر في مصانع "تورينو" وبعد هذا النجاح نبه غرامشي الحزب الاشتراكي بضرورة التفكير في المستقبل ورسم ملامح الدولة الاشتراكية الجديدة، وما كان بالإمكان إحداث هذه النقلة بمثل هذه "اللجان الداخلية"، فظهر للعيان الحاجة لجعل المصانع أمكنة وقواعد تحضيرية تنظيمية بل برلمانات للعمل السياسي الثوري فهي نواة تجمع البروليتاريا وعليه يجب أن تتحول إلى حاضنة للتربية وتثقيف كل العمل بدون استثناء.

لقد استشرف غرامشي مستقبل الطبقة العاملة وأرادها أن تحضر نفسها للحظة الملكية الجماعية وهي مازالت داخل المصانع الرأسمالية، فعمل هو وصديقه "تولياتي" على التمييز بين مستويين:

---

* اللجان الداخلية: هي هيئة نقابية تدافع عن أجور ومصالح العمال المنضوين تحت نقابة العمال عرفت في مصانع التعدين "بتورينو" تم الاعتراف بها رسميا من طرف الحكومة الايطالية سنة 1919 وتتكون من خمسة عشر عضو يختارون من طرف "اتحاد الموظفين في مصانع التعدين" وكثيرا ما يكونون من الحزب الاشتراكي وكان يعاب على اللجان الداخلية أنها لا تنتخب ديمقراطيا ولا تمثل كل توجهات العمال.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أولا– مجالس المصانع: أو "السوفييات" قاعدة تمثيلية تحتوي كل العمال الذين يتم تثقيفهم وتنظيمهم، وهي اقرب ما تكون برلمان للبروليتاريا.

ثانيا– الحزب: مؤسسة خاصة بالنخبة الواعية.

لن يصبح الحزب هو الفاعل الوحيد للعملية الثورية، ولا يمكن للحزب فرض قراراته على المجالس وهو الشيء الذي سبب فشل الثورة في ألمانيا على حسب غرامشي فعندما فرض الحزب أعضاءه على العمال تشتت الهمم، "وأخيرا فإن نظرة غرامشي إلى العلاقة بين الحزب والمجالس كانت ممثلة تماما للنظرية الماركسية إلى العلاقة بين السياسة والاقتصاد: لا يمكن لأي شكل من أشكال السياسة أن يفهم ويبرر تاريخيا إلا كهيكل حقوقي للسلطة السياسية الفعلية وإذا كان للحزب الاشتراكي أن يتسبب في الثورة بايطاليا فإنه يجب تأمين القاعدة الاقتصادية للدولة الاشتراكية"[6].

إضافة إلى عدم الاهتمام الذي كان سائد من دور المجالس فإن غرامشي انتقد عدم قدرة الحزب الاشتراكي على تنظيم الجماهير وظل داخليا منقسما على نفسه بين الاصطلاحين والراديكاليين، ومع ذلك فقد حافظ غرامشي في البداية على حياده ووحدة الحزب وفي نفس الوقت أبقى على مكانته الإدارية (عضو اللجنة التنفيذية) وأصبح لا يبالي كثير بصراع الأجنحة في الحزب وصب اهتمامه ووقته في تثقيف العمال وتطوير نضالهم الطبقي وتحضير البروليتاريا لتكون طبقة حاكمة، وفي ماي 1919 أصبح رئيس تحرير مجلة النظام الجديد (بالإيطالية: Ordine Nuovo) التي أصدرها مع صديقه "تولياتي".

كانت الكتابات والأهمية المتزايدة التي منحها غرامشي للمجالس بداية لازمة حادة في الحزب الاشتراكي فمع نهاية 1919 عارض عضو الحزب الاشتراكي وممثل الراديكاليين في الحزب "سيرتي" فكرة دخول كل العمال إلى المجالس بمن فيهم الغير منخرطين في النقابات وحاول غرامشي في صحيفته "النظام الجديد" توضيح شيئين: أولا: أحقية كل عامل في العضوية بالمجالس، ثانيا: أولوية المجالس (العمال) عن الحزب باعتبارها "أجهزة ثورية".

ومن سؤ الطالع أن "لينين" أثناء هذه الأزمة بعث بالصدفة رسالة مديح "لسيراتي" وحذره من خطر الانتهازيين في الحزب، الأمر الذي شجعه على رفض أي تغيير في خطة الحزب، وفي هذه الأثناء وجد غرامشي نفسه في مواجهة صريحة مع الجناحين الأساسيين للحزب، من جهة "كاريزماتية" "سيراتي" داخل الحزب ومن جهة أخرى الغالبية الساحقة للإصلاحيين الذين كان غرامشي ينعتهم بالمثبطين للعمل الثوري، فهو لم يعتقد بولائهم لمبادئ الثورة وحارب فكرتهم عن قلة نضج ظروف الثورة في ايطاليا.

دخلت سنة 1920 بموجة من الانتفاضات في كل أوربا كانت أسبابها في الغالب اقتصادية ولم تكن ايطاليا الاستثناء طبعا وبالفعل سادة حالة من الفوضى وفي أفريل 1920 حين حدث إضراب عفوي في "تورينو" يعتقد أن سببه الخفي هو صراع حول من يسيطر في المصانع العمال أو أرباب العمل، وعم الإضراب وسانده الحزب الاشتراكي لكن سرعان ما فشل وسيكون لهذا الفشل الأثر الكارثي على كل تاريخ الحركة الاشتراكية في ايطاليا ولقد ارجع غرامشي سبب فشل الإضراب في العزل الذي مارسه الحزب الاشتراكي على العمال فلم يسمح باتساعه خارج "تورينو".

---

6 جون كاميت، غرامشي، حياته وأعماله، مرجع سابق، ص 36.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبسبب ذلك كتب غرامشي مقالا في صحيفته "النظام الجديد" بعنوان: "من اجل تجديد الحزب الاشتراكي" نقد فيه بقوة الراديكاليون "ولام كذلك الإصلاحيين في صفوف الحزب وحملهم عدم كفاءته، لأن القصويين سمحوا ببقائهم: " لم تفعل الأجهزة المركزية شيئا لمنح الجماهير تثقيفا سياسيا بالمعنى الشيوعي، ولا لدفع الجماهير إلى إزاحة الإصلاحيين والانتهازيين من إدارة النقابات والمؤسسات التعاونية""[7].

كان المؤتمر الثاني للأممية المنعقد في موسكو سنة 1920 بحضور كل الأطياف الاشتراكية الايطالية قد أصدر أحدى وعشرين شرطا للانتماء إلى الأممية الشيوعية، أظهرت بعض الشروط مساندة "لينين" لتقرير غرامشي الذي اعتبره الاتجاه الصحيح الذي على الحزب الاشتراكي الايطالي أتباعه ورغم ما أثاره هذا التأيد من حقد في نفوس أعضاء الحزب مثل "بورديغا" إلا أن "سيراتي" وعد بإتباع التقرير وتصفية الحزب من الانتهازيين، لكن ولا شيء من هذا حدث، وفي خضم نقد كل الأطياف في الحزب انتقد غرامشي كذلك نفسه عندما رأى انه كان غير طموح لمسك زمام السلطة في الحزب، فتواضعه وعدم اتساع شبكة علاقاته خارج "تورينو" أبقاه هو ومواليه أقلية معزولة في الحزب.

شعر غرامشي بالمرارة من تصرفات الإصلاحيين الذين كانوا يخططون في الحانات أكثر مما يساعدون في مقر الحزب وحتى عملهم في الحزب لم يعدو أن يكون مماطلة وتزييف حيث أظهر أن التسيير يتم وفق الديمقراطية البرجوازية القائمة وتم التغاضي عن الهدف الحقيقي المتمثل في إعداد البروليتاري للمرحلة الجديدة مما شل القدرة على الثورة، فمادام الحزب لم يعي دوره الطليعي فلن يتم الاستيلاء على السلطة، مما دفع غرامشي في 18 ديسمبر 1920 للقول: "الحقيقة أن الحزب الاشتراكي لم يكن تجمعا "حضريا" بل حشدا قبليا"، لم يكن جسما متكاملا بل تجمع أشخاص""[8].

في صيف 1920 بدأ غرامشي يشق طريقا جديدة لعلها توقض الحزب الاشتراكي الذي سئم قادته ففي أواخر الموسم حدث تقارب متزايد بينه وبين "الفوضويين"* ولم يهتم غرامشي بانتمائهم ماداموا عمليين ويشاطرونه على الأقل الخطوط العامة لما عاد يسمى "النظام الجديد" خاصة مسألة عمل "مجالس المصانع" وقد ساند منظر العنف الثوري "جورج سوريل" هذا التقارب أمام سخط القادة الاشتراكيين، ولكن للأمانة لم يكن غرامشي يتفق مع الفوضويين في الكثير من المسائل خاصة مسألة الدولة.

كانت الفوضوية معروفة بعدائها الصريح لتصور الدولة فراح غرامشي يشرح تصوره للدولة مستندا إلى نظريتين:

الأولى: تصور "فريديريك هيجل" للدولة.

الثانية: تصور "فلاديمير لينين" الأممية الشيوعية.

يعترف غرامشي بأن الشيوعية طموح أممي تختفي فيه مظاهر القومية والقطرية والدولة، لكن تبقى الدولة خطوة أساسية لا يمكن بأي حال من الأحوال نفيها، يجب التفريق بين دولة محدودة سياسيا واقتصاديا وحتى قوميا ودولة عامة للمجتمع الإنساني وفق ما ترنو إليه الأممية ، فالمجتمع يكتسب وعي بذاته عبر الدولة كما يقول

---

7 المرجع نفسه، ص 42.

8 المرجع نفسه، ص 42.

* الفوضويين: وهي حركة تعود الى "باكونين" مشهورة بدعوتها لنفي الدولة مثلها في ايطاليا كل من: "موريتزيو" "غارينو" "وبييترو فيريرو " "كارلو بيتري"

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"هيجل" لأنه يجد فيها الصيغة التاريخية المثلى لتقدم الحضارة، ومن بين التنظيمات التي تنتجها البروليتاريا بعد الثورة هي الدولة الاشتراكية الوطنية على حد تعبير "لينين" والتي ستمهد فيما بعد للتشارك مع دولة اشتراكية أخرى لبلوغ الأممية الشيوعية.

إذا لم يكن غرامشي متفقا تماما مع الفوضويين مادام انه اعتقد بتحول الدولة البرجوازية إلى دولة اشتراكية ففكرتهم عن الحرية المطلقة كانت اقرب ما تكون "ايطوبيا" (Utopie) جافة، ورغم انه لم يكن يساندهم في آرائهم فإنه لم يعاديهم ولم يرى فيهم خطرا على الثورة البروليتارية بقدر ما كان يراه في مجموعتين الأولى خارج الحزب الاشتراكي هم: "القوميين" (الفاشيين) الذين سنحت لهم فرصة ضعف الدولة في التجبر لدرجة ممارسة العنف على معارضيهم السياسيين خاصة بعد الحرب العالمية الأولى، والمجموعة الثانية هم الإصلاحيين الذين كانوا يخربون الحزب الاشتراكي، ورغم ما تظهر بعض مواقفهم إنها يسارية إلا أنهم في الغالب يقفون مع الطرف الآخر ويؤمنون أن الطريق للوصول إلى السلطة هو الديمقراطية وليس الثورة.

لم تثمر نداءات "لينين" ولا غرامشي في تجديد الحزب الاشتراكي وتطهيره من الانتهازيين ووجد "سيراتي" نفسه بين فكي الكماشة فمن جهة يرفض الدخول في مواجهة مع الإصلاحيين الذين يمثلون الأغلبية في الحزب ومن جهة أخرى يواجه معارضة "الكومنترن" التي جاء مؤتمرها الثاني بتوصية "لينين" للأحزاب الاشتراكية في أوربا بضرورة طرد الإصلاحيين ووصفهم بالخونة، وأبقى "سيراتي" على الوضع داخل الحزب كما هو، وأراد أن يبرر وجود الإصلاحيين في الحزب على انه وضع تفرضه خصوصية العمل الثوري في ايطاليا.

هذه الحالة لم يسكت عنها غرامشي الذي بلغ به الغضب من الإصلاحيين لدرجة انه أصبح أكثر إصرارا من "لينين" على طردهم وحذر "سيراتي" من انه سيواجه عزلة من طرف البروليتاريا العالمية بعد أن رفض توصيات الأممية الشيوعية التي لم تطالبه إلا بالقليل من الحزم والصرامة والتنظيم المحكم للحزب بغية تحقيق أهدافه المنشودة.

ولم يبق غرامشي مكتوف اليدين بل عقد في أكتوبر 1920 مؤتمر بمدينة "ميلانو" مع صفوة الحزب الشيوعي وتم الاتفاق على تأسيس حزب جديد ينقل العمل الثوري في ايطاليا من الحزب الاشتراكي إلى مستوى أعلى هو الحزب الشيوعي الايطالي كفرع من الأممية الشيوعية العالمية، ثم تم الاتفاق على عدم إشراك الإصلاحيين فيه، وفي سنة 1922 اعترف"سيراتي" بأنه ارتكب خطأ عندما لم يطرد الإصلاحيين من الحزب الاشتراكي.

في سنة 1921 تم بالفعل تأسيس الحزب الشيوعي الايطالي وكان غرامشي عضوا بارزا في ذلك، وتوقف الحزب الاشتراكي عن عمله، وبعد عامين من النشاط داخل الأممية الشيوعية (موسكو- فيينا) أصبح غرامشي الأمين العام للحزب الشيوعي الايطالي، وفي نفس السنة 1922 تزوج في موسكو وفي سنة 1924 ترأس اللجنة التنفيذية للحزب.

وفي الثامن من نوفمبر سنة 1926 يتم إلقاء القبض على غرامشي من طرف الشرطة الفاشية بناءا على أمر من "موسوليني" وفي سنة 1928 يحكم عليه من طرف محكمة فاشية خاصة بعقوبة السجن لمدة عشرين سنة نافذة حيث أمضى العشر سنوات الأخيرة من عمره تحت التعذيب، وفي السجن حرر غرامشي "رسائل من السجن"، بداية من 1929 أعلن قطيعته مع "ستالين" بسبب الاتجاه السياسي للأممية وتحويل الماركسية ديانة رسمية للدولة التوتاليتارية قبل أن يموت في مستشفى سجن روما في 27 أفريل 1937.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

02- فكره:

أ- ماهية الفلسفة:

عندما يتحدث غرامشي عن المعرفة فهو يفرق بين ثلاثة مستويات هي: 01- الفلسفة، 02- الدين، 03- الحس المشترك والفلكلور، ويرى أن "الفلسفة نظام فكري أما الدين والحس المشترك فلا يمكن أن يكونا كذلك. ويلاحظ أيضا أنهما لا يتطابقان"[9]، غرامشي يجعل الحس المشترك عنوانا للفكر العامي المكون من خليط كثيف من الأفكار والشوائب التاريخية الغير مرتبه بمقابل الفلسفة التي تعتبر "حس سليم"، أعلى قيمة وأكثر تعقيدا، ومع ذلك فغرامشي يربط الفلسفة بسياقاتها التاريخية التي نشأة فيها فالفيلسوف ما هو إلا تعبيرا عن عصره ومنه "إن التاريخ والفلسفة بهذا المعنى شيء واحد، لا ينفصمان: إنهما يكونان سبيكة واحدة"[10]، بل يذهب إلى درجة ربط قيمة هذه الفلسفة بتاريخها، "ويمكن القول أن القيمة التاريخية لأية فلسفة تقدر بما اكتسبته من فاعلية "عملية"بأوسع معاني الكلمة. وإذا صح أن أية فلسفة هي تعبير عن مجتمع ما، فلا بد أن تعود لتؤثر في هذا المجتمع تأثيرا ايجابيا وسلبيا معا. ومدى تأثيرها هو بالتحديد مقياس أهميتها التاريخية، والدليل على أنها ليست مجرد "جهد فردي لا طائل من ورائه"، بل "حقيقة تاريخية"."[11]

لقد لعب الدين لفترة طويلة دور الإيديولوجيا الموحدة للحياة الجماعية ومحافظا على تماسك الحياة الفردية فالكنيسة الكاثوليكية مثلا لا تزال توحد الكتلة الاجتماعية للمؤمنين بل حتى أنها منعت ظهور دين للنخبة وأخر للعامة وأبقت على رؤية للعالم موحدة يتشارك فيها أعلى الهرم مع أسفله وظل هناك دين رسمي واحد، ووجب على الفلسفة أن تنحى هذا المنحى الذي لا تنفصل فيه القاعدة عن القمة، وان تجعل من نفسها خادمة للحياة الاجتماعية بتخلصها من طابعها الفردي الخالص.

ولا يعني هذا أن تتحول الفلسفة إلى "حسا مشترك" بل عليها أعمال معول النقد فيه لترجعه حسا سليما، ذلك إن تاريخ الفلسفة حمل على الدوام مهمة النقد وينبع النقد من القدرة على التفكير بطرق مختلفة ومن منطق وجود احتمالات متعددة ومن الخيال المتجاوز للواقع ومن النظر للأمور بطريقة مغايرة، كما أن وعي الإنسان الذاتي وصراعه من اجل إثبات الذات يعتبر جزء من العملية.

عبر النقد الذاتي تطمح الفلسفة لإخراج الجماهير من سلبية "الحس المشترك" وترشدهم إلى رؤية أرقى للحياة، فالانتقال من الطور الأول أين تكون الجماهير النشطة اقتصاديا تحت رحمة الهيمنة والقيادة الرجعية إلى الطور الثاني أين تبدع النخب وتجدد لها رؤية مستقبلية للنشاط الإنساني تبقى قضية تكوين النخب عملية شاقة وطويلة مليئة بالتعارضات والتقدم والتقهقر، وعندما تتشكل هذه النخب فإنها تتميز عن عامة الناس بحسها النقدي وهي بذلك ترقى عن المعتقدات المتحجرة للعامة وتتميز بمستواها الفكري الذي يدفع العامة لإتباعها.

وعلى الحركة الثقافية للنخب أن تتمسك ببعض الشروط لتحقيق الريادية والإتباع وهي:

1- التعليم المتكرر للعقلية الشعبية.

2- الارتقاء بالمستوى الفكري للجماهير.

---

9 انطونيو غرامشي، كراسات السجن، www.nj180degree.com ، ص 06.

10 المصدر نفسه، ص 24.

11 المصدر نفسه، ص 24.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لقد تصور غرامشي الفلسفة كإمكانية متاحة لكل الناس وليست تأملا ميتافيزيقيا فج فطالبها بالانخراط في اليومي وتعقيداته وهو بذلك ينحو منحى الطرح الماركسي الذي رأى النشاط الفلسفي تفكيرا نقديا مرتبط بالواقع له الصلة الوثيقة بالممارسة السياسية فيحرك الوعي العمالي نحو الثورة .

لقد أشار غرامشي في الكثير من محطات فكره بأهمية ربط أواصل التعاون بين الفلسفة والممارسة، الفكرة التي يستشهد فيها غرامشي "بماركس" كثيرا وليبرهن على حقيقة ارتباط الوعي بالبراكسيس ينطلق غرامشي من بديهة يؤمن بها هي أن الفلسفة معطى ممكن لكل إنسان وليست كما يظن الكثيرين أنها معرفة معقدة مميزة لفئة معينة من النخب.

يعتقد غرامشي أن الفلسفة تفكير عفوي موجود عند كل الناس مادام أن كل إنسان له رؤيا للكون والحياة فإنه يلج الفلسفة من ماهيتها الأولى ، كما أنها محمولة في ثلاثة عناصر:

1- الحس المشترك.

2- اللغة.

3- التفكير العامي (الفلكلور) المعتقدات والخرافات.

لكن غرامشي يعتبر وجود الأرضية الفلسفية عند العامة فاتحة إلى خطوة تحضيرية ثانية هي "الوعي النقدي".

ب- الإيديولوجيا:

تعتبر الإيديولوجيا احد أهم المفاهيم التي اعتنت بها الماركسية من ناحية مضمونها وشكلها وآليات اشتغالها من منطلق العلاقة بين القاعدة المادية والاقتصادية لحياة الناس وتأثيرها على وعيهم (البنية الفوقية : القانون السياسة[12]) وينظر غرامشي للايديولوجيا كونها معتقد أو إيمان بل حتى دينا بغض النظر عن أصله وتتجلى الإيديولوجيا في تصورنا للوجود والأشكال الثقافية الأدبية الأخلاقية والقانونية...الخ، وهي ممارسات تحكم سلوك الفرد والجماعة.

إن الإيديولوجيا حقلا متماسك تماسكا منطقيا كونه تعبير عن وظيفة اجتماعية ومع ذلك فله مستوياته "يحدد غرامشي حقل الإيديولوجيا في شكل هرمية منطقية تتألف من أربع درجات أو طوابق هي التجسدات"والأشكال الملموسة التي تتجلى فيها الإيديولوجيا""[13] ، ويمكن ترتيبها على النحو الأتي:

01- الحس المشترك والفلكلور: سنجمع هذان المستويان لتشابهما واقترابهما من بعضهما البعض اهتم غرامشي بالتفكير العامي للشرائح الأقل ثقافة في المجتمع وفهم وعيهم الحسي البسيط الذي يكاد يخلو من كل نقد وعمق تفكير ومع ذلك تعبر الجماهير عن نفسها بداخله رغم هشاشته ووقوفه على التجربة اليومية واقترابه من الاعتقاد والأيمان كالدين.

يعتبر الفلكلور أكثر تصلبا وتحجرا من الحس المشترك المرن كما انه أكثر تشويشا وعدم تماسك عكس هذا الأخير الذي رغم تهلهله فإنه أكثر انسجاما ومنه فيبقى في القاع كترسبات في أسفل الحياة الثقافية الاجتماعية فهي لا ترتفع لتشكل تصورا موحدا للعالم ولا تعدو أن تكون شذرات متناثرة لما تبقى من التحولات التاريخية.

---

[12] Marx, introduction a la critique de l'economi politique PSF Paris 1966, pp 4,5

[13] عمار بلحسن ، الأدب والايديولوجيا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 21.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

02- الدين: لقد هيمن الدين لزمن طويل على البشرية وما يزال ، وله قدرة كبيرة على تحريك الجماهير والتأثير على وعيها الأمر الذي دفع غرامشي إلى الاهتمام به من حيث ماهيتها (كرؤيا للعالم) وتطبيقاته (الطقوس والشعائر الممارسات والسلوكيات) ومن بين الديانات الكبرى في العالم ركز غرامشي اهتمامه على المسيحية الكاثوليكية مجسدة في مؤسستها الشهيرة "الكنيسة الكاثوليكية في روما" وعبر تراتبيتها الهرمية وتنظيمها الرمزي والبيروقراطية (الاكليروس أو رجال الدين)، ولاحظ غرامشي مدى سطوة الفاتيكان على وعي الايطاليين مستعينا بالصحف والأحزاب المسيحية والإعلام.

03- الفلسفة: يقول ماركس"إن الفلاسفة لا يظهرون من العدم بل هم نتاج مجتمعاتهم وعصرهم بل هم الثمرة الأغلى لواقعهم"، واعتبرهم غرامشي الوعي التاريخي لطبقة اجتماعية تعبر عن ذاتها في نسقا صارم ومنظم وهو بذلك يرفعها من مجرد تفكير فردي محدد إلى ظاهرة جماعية لكنه في نفس الوقت يستبعد نوعا من الفلسفة المستقلة التي لا تهتم بالتاريخ والواقع الاجتماعي وتكتفي بالتفكير الموغل في الفردانية والغموض.

إن ما يقصده غرامشي بالفلسفة هو ""فلسفة البراكسيس* Praxis الفلسفة المنخرطة في الصراعات الاجتماعية الفلسفة الايجابية التي تؤثر في المجتمع وتغيير تاريخه.

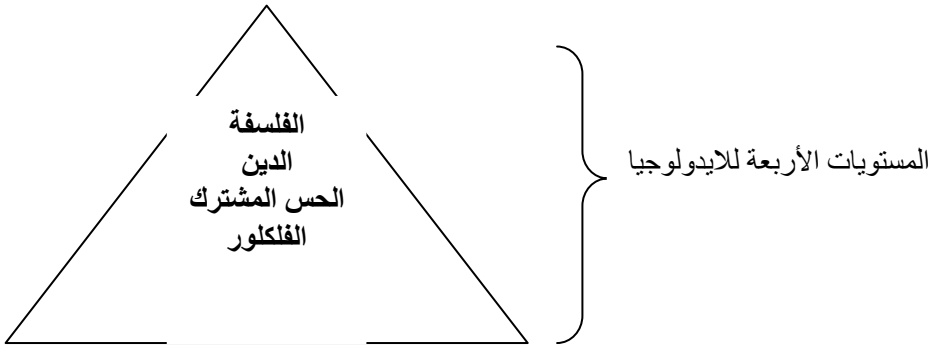

هناك علاقة قوية بين الإيديولوجيا والصراع الطبقي فالممارسات السياسية لكل طبقة اجتماعية تحركها الإيديولوجيا تحفزها وتحدد غايتها وبما أن الفلسفة احد مستويات الإيديولوجيا فإنها بالتالي متورطة تاريخيا في السياق العام للصراع السياسي وتبقى حلقة الوصل والانتقال من علاقات الإنتاج (المستوى الاقتصادي) إلى الوعي الايديولوجي (المستوى السياسي) وهي هنا لا تحمل دلالة سلبية كما حملها إياها ماركس بل تصبح إيديولوجيا ايجابية مادامت يتحرك بداخلها الناس ويشحذون فيها وعيهم ويكتسبون عبرها وعيهم بذاتهم ولا تتوقف عند هذه الوظيفة السيكولوجية بل تتعداها إلى وظيفة تنظيمهم وتشكيلهم موضوعيا أي أنها تغدو من كونها معتقدا لتصبح "قوة مادية"، وتنظيما سوسيولوجيا.

إن الإيديولوجيا تقوم بدور حاسم في تعبئة الناس ثم حشو وعيهم إلى تنظيمهم وتحريكهم، ويشبه غرامشي هذه العملية بوظيفة البنائيين في التخطيط بناء الهيكل ثم إنهائه ولقد رأى في الفاتيكان بروما مثالا واضحا لقوة الإيديولوجيا على تشكيل ممارسات المؤمنين، أنها تجعلهم ككتلة واحدة ولحمة يتكاتف فيها العناصر ويتماسكون لغاية محددة لقد أعجب غرامشي كثيرا بدقة النظام الكنسي وما يقوم عليه من ممتلكات مادية ومؤسسات إدارية وقدرة متجددة على الإنتاج الرمزي بطبع الكتب الدينية والسهر على توزيعها.

* البراكسيس: مفهوم ماركسي يقصد به تطابق النظرية والممارسة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تقابل الأدبيات السياسية دوما مجتمعين داخل الدولة الأول يسمى: المجتمع المدني* والثاني المجتمع السياسي وداخل هذه البنية تسعى الطبقة المسيطرة دوما للإبقاء الوضع على ما هو عليه وانتزاع الشرعية من الجميع على أحقية البناء الاجتماعي القائم وتستعين في ذلك بـ :

1- المؤسسات الدينية.

2- المؤسسات التربوية العلمية (المدارس، الجامعات...الخ).

3- المؤسسات الإعلامية (الراديو، الصحف..الخ).

❖ أما المجتمع السياسي فتجسده الدولة:

1- الجهاز العسكري.

2- جهاز الشرطة.

3- مؤسسات الدولة القانونية.

ج – المثقف التقليدي والمثقف العضوي

إن هذه الدراسة الغرامشية للايديولوجيا تدفعنا مباشرة وبشكل حتمي إلى إشكالية أخرى عمق البحث والتفكير فيها إنها قضية المثقفين ولقد أعاد التفكير فيها مبددا الأحكام المسبقة التي ارتبطت به طويلا من حيث تفرد والتمايز الشديد عن المجتمع ، بل اعتقد غرامشي أن هناك علاقة ضرورية موضوعية تربط المثقفين بطبقاتهم كونهم الإفراز الأعلى شئنا لها فهم يرتبطون عضويا بها فإذا كان عمالها يقدمون مجهودا عضليا فإن النخبة تقدم مجهودا ذهنيا.

يستعمل غرامشي مفهوم "المثقف العضوي" والعضوية هنا تعني الانتماء البيولوجي الأسري الذي على المثقف أن ينشدها وينشد عبرها إصلاح "الحس المشترك" عند عامة الناس فكون المثقف مزودا بالوعي النقدي لزم عليه القيام بالدور الطليعي الذي تفرضه عليه الظروف التاريخية من هذا المنطلق يميز غرامشي بين المثقف التقليدي والمثقف العضوي فماذا يعني بهذا التمييز ؟

يربط غرامشي المثقف التقليدي بالطبقة الرجعية التي ينتمي لها (برجوازية صغيرة) والتي تنحدر إلى الأفول وتقف عقبة أمام كل تغيير وهذا يعني أن على المثقف العضوي أن يعبر بصدق عن طبقته ويقاوم تسلط المجتمع السياسي فعند مستوى الصراع الثقافي يجهد المثقف لعضوي نفسه من اجل الوعي بالذات Auto Conscience والنقد الذاتي Auto critique لينتصر على الرجعية الخادمة للطبقة المهيمنة.

يرتبط المثقف إيديولوجيا واجتماعيا بطبقته فهو يمثلها ويعبر عن آمالها وطموحاتها في كل الميادين العلمية والأدبية والفنية، فهو عبر هذه القنوات يؤثر في وعيهم ونظرتهم للعالم، وهم مخولين لمثل تلك المهام بسبب حسهم السليم

استعمل غرامشي مفهوم "الهيمنة الثقافية" وكان يعني به الهيمنة الثقافية للطبقة البرجوازية الحاكمة بنشر أفكارها وتصوراتها عن الحياة وهي بذلك تفرض وعيا زائفا على غيرها مما يمكنها من السيطرة والدوام أطول مدة،

* يعتبر غرامشي أن استعمال مفهوم المجتمع المدني عند هيجل يعني هيمنة فئة معينة على المجتمع كله أما في التصور المسيحي فالمجتمع المدني يقابل مجتمع الكنيسة إلا أن غرامشي يدرج المجتمع المدني والسياسي ضمن البنية الفوقية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لذلك على "المثقف العضوي" فضح هذه الممارسات وتبيان زيفها، ويعني ذلك مقاومة وإعلاء من وعي طبقته المسحوقة ليس اقتصاديا فقط وإنما كذلك ثقافيا.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com